

أهداف الدرس

- أن أتعرف أدب العلماء في التأليف .
- أن أخلص لله عند الطلب .
- أن أتمثل هذا السلوك عند الشروع في أي عمل .

تمهيد

لقد بذل أسلافنا الكرام في سبيل العلم الشباب والقوة والوقت والمال ، فأودعوه في النفوس ، وألفوا في فنونه المؤلفات الضخمة الجامعة ، وقربوه إلى العامة ، منثورا ومنظوما ، تنفيذا لأمر الله بنشر العلم ، وابتغاء للأجر والثواب العظيم الذي وعد الله به العالم العامل . فكيف كان أدب العلماء عند التأليف؟ وما أهدافهم من العلم وتعليمه؟ وما السر من تعلقهم بالله عند الشروع في التأليف؟

المتن

قال ابن عاصم رحمه الله:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُحِيطِ عِلْمُهُ *** السَّابِقِ الْخَلْقِ جَمِيعًا حُكْمُهُ
 سُبْحَانَهُ مَنْ وَاجِبٌ وَجُودُهُ *** عَمَّ الْعِبَادَ لُطْفُهُ وَجُودُهُ
 أَبْدَعَ مَا شَاءَ كَمَا قَدْ شَاءَ *** وَفَضْلُهُ مَنْ بِهِ ابْتِدَاءُ
 وَعَمَّ بِالتَّكْلِيفِ كُلَّ مَا خَلَقَ *** وَخَصَّ مَنْ شَاءَ بِمَا لَهُ سَبَقُ
 وَقَدَّرَ الْأَرْزَاقَ وَالْأَجَالَ *** وَحَصَرَ الْأَنْفَاسَ وَالْأَعْمَالَ
 لِيَجْزِيَ الْعَاصِيَ وَالْمُطِيعَا *** وَلَوْ يَشَاءُ لَهْدَى الْجَمِيعَا
 أَضَلَّ مَنْ شَاءَ وَمَنْ شَاءَ هَدَى *** وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ لَتَبْيِينِ الْهُدَى
 وَعِنْدَمَا تَوَالَتْ الضَّلَالَةُ *** هَذَاهُمْ بِخَاتَمِ الرُّسَالَةِ
 الْحَاشِرِ الْمَاحِي نَبِيِّ الرَّحْمَةِ *** مُحَمَّدٍ أَحْمَدَ هَادِي الْأُمَةِ
 دَاعِيَهُمْ لِمِلَّةِ الْإِسْلَامِ *** مُبَيِّنًا لِلْحِلِّ وَالْحَرَامِ

مُجَدِّدًا مَعَالِمَ الْإِيمَانِ *** وَمُظْهِرًا مَنَاهَجَ الْإِحْسَانِ
وَلَمْ يَزَلْ يَدْعُو إِلَى دِينِ الْهُدَى *** لِيُنْجِيَ الْأُمَّةَ مِنْ مَهْوَى الرَّدَى
حَتَّى دَعَاهُ رَبُّهُ إِلَيْهِ *** مُرَدِّدًا صَلَاتَهُ عَلَيْهِ
وَبَقِيَتْ سُنتُهُ مُسْتَمْسَكًَا *** فَلَنْ يَضِلَّ مَنْ بِهَا تَمَسَّكَ
صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ مَا أَبَدَتْ هُدَى *** وَمَا اقْتَفَى سَبِيلَهَا مَنْ اهْتَدَى

الفهم

الشرح:

الإبداع: خلق الأشياء على غير مثال سابق.

قَدَّرَ الْأَرْزَاقَ وَالْآجَالَ: أي جعلها على مقدار معلوم.

الحاشر: اسم من أسمائه ﷺ ومعناه: أن الناس يحشرون على أثره ﷺ وزمان نبوته ورسالته؛ لأنه خاتم الأنبياء لا نبي يبعث بعده.

مستمسكًا: ظرف ميمي أي ملتزمًا بالمنهج والشرعية.

استخلاص المضامين:

1. أذكر صفات الله العلية التي ذكرها ابن عاصم رحمه الله.
2. أحدد مظاهر ثناء الناظم على الرسول ﷺ.

التحليل

يشتمل هذا الدرس على ما يأتي:

أولاً: التعريف بالناظم

ابن عاصم هو: محمد بن محمد بن محمد بن عاصم القيسي الغرناطي الأندلسي المالكي، يكنى بأبي بكر، شاعت شهرته بابن عاصم على اسمه وكنيته، ولد عام ستين وسبعمئة (760هـ/1359م).

وقد قيض الله له أن يحيا في أحضان أسرة علمية، شهيرة بالورع، موصوفة بالتقوى، فكانت أسرته مدرسته الأولى، فتعلم من خاليه: الإمامين أبي بكر، وأبي محمد، ابني أبي القاسم ابن جزي، كما جلس طالبا إلى أكابر علماء حاضرة غرناطة، فأخذ عن أبي سعيد فرج بن القاسم

بن لب ، وناصر السنة الإمام أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي ، وغيرهما ، وقد تلقى عنه تلامذة كثر ، منهم : ولده يحيى ، والمواق .

وبالرغم من انشغاله بوظيفة القضاء ، إلا أنه خلف تآليف في فنون العلم المتداولة في زمانه ، منها : «مهيع الوصول إلى علم الأصول» ، ومنظومة «مرتقى الوصول إلى الضروري من الأصول» ، ومنظومة «نيل المنى في اختصار الموافقات» ، وفي الفقه : منظومة « تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام» ، ومنظومة «كنز المفاوض في علم الفرائض» ، وأنظام أخرى في القراءات والنحو وغيرها .

تولى ابن عاصم -رحمه الله - وظائف مختلفة ومهمة ، مما يبرز حاجة المجتمع إليه ، وعدم قيام غيره مكانه ؛ لسعة علمه ومداركه ، وتحقيقه للأحكام ، وكونه إمام أهل عصره ، ومقصدهم في الفتوى وأمور الاجتهاد .

وقد توفي رحمه الله عام تسع وعشرين وثمانمائة (829هـ) ، وعمره تسع وستون سنة . [توشيح الدياج : (108-109) ، أزهار الرياض : (7-5/3)] .

ثانيا : مقدمة المنظومة

تناول الناظم في المقدمة الأمور الآتية :

1 . الثناء على الله تعالى

افتتح ابن عاصم -رحمه الله - منظومته بحمد الله سبحانه تأسيا بالقرآن الكريم الذي افتتح بالحمد لله رب العالمين ، واقتداء بالنبي ﷺ في خطبه ومواعظه ورسائله ، وامتنالا لأمره ﷺ الذي قال فيه : «كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم» [أخرجه أبو داود ، كتاب الأدب ، باب الهدي في الكلام] . والحمد لغة : الثناء ، واصطلاحا : هو الثناء على المحمود جل في علاه بما فيه من المدح ، تعظيما وإجلالا .

وقد ذكر ابن عاصم عظيم أوصافه سبحانه ، وجيل أفعاله :

أ - مضاء حكمه على جميع خلقه ، فلا يخرج عن حكمه مخلوق ، أو يتعالى عن أمره شي ، وهذا مصداق قوله سبحانه : ﴿إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ [يوسف : 40] .

ب - تعميم لطفه ونعمته على جميع مخلوقاته ، فكل المخلوقات تنعم برحمته وفضله ، قال سبحانه :
﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ تَخَوَّلَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ
خَالِفَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: 19].

ج - خلق الكون في دقة ونظام بديعين . قال سبحانه : ﴿ إِنَّا كَلَّشْنَاهُ بِفَدَرٍ ﴾
[القمر: 49].

د - تفضيل بعض المخلوقات على بعض ، فجعل الإنسان أشرفها ، والأنبياء المكرمين أفضل
بني آدم ، واختار سيدنا محمدا ﷺ فجعله أشرفهم .

هـ - تكليفه سبحانه المخلوقات بأوامره ونواهيه ، فخاطب الثقلين جميعها ، وخاطب سائر
الحيوانات والجمادات ببعضها ، فهي تسبح الله وتحمده ، قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخَرُ لَهُ
مَرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْكَثِيرِ صَبَاتٍ كُفُّوا عَنْ صَلَاتِهِ وَتَسْبِيحِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور: 40].

و - قضاؤه السابق الواجب بالسعادة لمن شاء ، والشقاء لمن شاء ، وتفصيلها في علم التوحيد .
ز - تقديره سبحانه الأرزاق وتقسيمها بين خلقه ، وتحديد الأجل والأعمار ؛ لحكمة يعلمها
سبحانه ، وتقتضيها عدالته غير ظالم لخلقه .

ح - هدايته سبحانه من يشاء بفضله ، وعدله وحكمته ، وتفصيل ذلك في علم التوحيد .

ط - إرساله الرسل لبيان الهدى ، وإرشاد الناس .

وهذا ما يشير إليه الناظم رحمه الله بقوله :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُحِيطِ عِلْمُهُ *** السَّابِقِ الْخَلْقِ جَمِيعًا حُكْمُهُ
سُبْحَانَهُ مِنْ وَاجِبٍ وَجُودُهُ *** عَمَّ الْعِبَادَ لُطْفُهُ وَجُودُهُ
أَبَدَعَ مَا شَاءَ كَمَا قَدْ شَاءَ *** وَفَضْلُهُ مَنْ بِهِ ابْتِدَاءُ
وَعَمَّ بِالتَّكْلِيفِ كُلِّ مَا خَلَقَ *** وَخَصَّ مَنْ شَاءَ بِمَا لَهُ سَبَقُ
وَقَدَّرَ الْأَرْزَاقَ وَالْأَجَالَ *** وَحَصَرَ الْأَنْفَاسَ وَالْأَعْمَالَ

لِيَجْزِيَ الْعَاصِيَ وَالْمُطِيعَا *** وَلَوْ يَشَاءُ لَهْدَى الْجَمِيعَا
أَضَلَّ مَنْ شَاءَ وَمَنْ شَاءَ هَدَى *** وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ لَتَبَيِّنَ الْهُدَى

2. الثناء على الرسول ﷺ

قال الناظم رحمه الله:

وَعِنْدَمَا تَوَالَتْ الضَّلَالَةُ *** هَدَاهُمْ بِخَاتِمِ الرِّسَالَةِ
الْحَاشِرِ الْمَاحِي نَبِيَّ الرَّحْمَةِ *** مُحَمَّدَ أَحْمَدَ هَادِي الْأُمَّةِ
دَاعِيَهُمْ لِمِلَّةِ الْإِسْلَامِ *** مُبَيِّنًا لِلْحِلِّ وَالْحَرَامِ
مُجَدِّدًا مَعَالِمَ الْإِيمَانِ *** وَمُظْهِرًا مَنَاهِجَ الْإِحْسَانِ

ثنَّى الناظم بعد حمد الله وذكر صفاته بالثناء على الرسول ﷺ، فوصفه بالأوصاف الآتية:

أ - أنه ﷺ **خاتم الأنبياء**، فلا نبي بعده، وقد هدى الله به الناس بعد فترة من الجاهلية التي توالى على الناس .

ب - أنه ﷺ **الحاشر الذي يحشر الناس على قدميه**، والماحي الذي يمحو الله به الكفر، ونبي الرحمة المبعوث بالرحمة والسماحة.

ج - وهو ﷺ: **محمد أحمد هادي الأمة**؛ أي من أسمائه: محمد وأحمد، وكلاهما من الحمد، وسمي بمحمد: لكثرة خصاله المحمودة، وقيل غير ذلك من التوجيهات.
وسمي بأحمد؛ أي: أحمد حامدين، وقيل غير ذلك من التوجيهات.

ثم ختم الناظم المقدمة بذكر وظائف النبي ﷺ فقال:

وَلَمْ يَزَلْ يَدْعُو إِلَى دِينِ الْهُدَى *** لِيُنْجِيَ الْأُمَّةَ مِنْ مَهْوَى الرَّدَى
حَتَّى دَعَاهُ رَبُّهُ إِلَيْهِ *** مُرَدِّدًا صَلَاتَهُ عَلَيْهِ
وَبَقِيَتْ سُنَّتُهُ مُسْتَمْسَكًا *** فَلَنْ يَضِلَّ مَنْ بِهَا تَمَسَّكَ
صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ مَا أَبَدَتْ هُدَى *** وَمَا اقْتَفَى سَبِيلَهَا مَنْ اهْتَدَى

فمن وظائف الرسول ﷺ البلاغ والبيان، وبشارة الناس ونذارتهم، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا

النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ، وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب:

45-46]. وقد بلغ ﷺ الرسالة، وأدى الأمانة، ولم يفتر لحظة من حياته إلا وهو مبلغ موجه مرشد، إلى أن أتاه اليقين.

التقويم

1. لماذا افتتح الناظم - رحمه الله - المتن بحمد الله تعالى والصلاة على النبي ﷺ؟

2. ماهي الأوصاف الإلهية التي استحضرها الناظم في مقدمته؟ ولماذا؟

3. ما الأثر الذي ينبغي أن يستشعره طالب العلم عند دراسة هذه المقدمة؟

الاستثمار

قال الرجراجي - رحمه الله - : «وأما الفرق بين الحمد والشكر ففيه خمسة أقوال: قيل: هما مترادفان، فكل حمد شكر، وكل شكر حمد. وقيل: هما متباينان، فالحمد هو: الثناء على المحمود بما فيه من الخصال الجميلة كالعلم، والشجاعة، والشكر هو: الثناء على المشكور بما فيه من الإحسان. وحرر بعضهم الفرق بينهما بأن قال: الحمد هو الثناء على المحمود بما فيه من المدح، والشكر هو الثناء على المشكور بما أولاك من المنح، فالحمد على هذا من صفات الذات، والشكر من صفات الفعل. وقيل: الحمد أعم من الشكر؛ لأن الحمد يقع على السراء والضراء، ويقع على مقابل النعمة... وقيل: الشكر أعم من الحمد، والحمد أخص من الشكر؛ لأن الحمد لا يكون إلا بشيء واحد وهو: القول».

[رفع النقاب عن تنقيح الشهاب 1/12].

1. أستخلص من النص الفرق بين الحمد والشكر.

2. أبين من خلال المدارس مع أصدقائي في الفصل الراجح من الأقوال مع الدليل.

3. أرجع إلى كتب اللغة للتعرف على معاني الحمد والشكر عند العرب.

الإعداد القبلي

1. أحفظ الأبيات المقررة في الدرس الموالي.

2. أبين هدف الناظم من منظومته، ومنهجها انطلاقاً من الأبيات.